بغداد في التاسع من نيسان ٢٠٠٣

خشينا ان يكون سقوط الصنم كذبة نيسان!

عامر القيسي

"كما لو ان صعقة كهربائية مفاجئة قد رجتني" بهذه الكلمات بادرني المهندس عدنان سهيل (٤٠ عاما) بعد ان القيت عليه السؤال المزدوج :
. ماذا يعني بالنسبة لك تأريخ التاسع من نيسان وما مشاعرك في ذلك اليوم؟

جلسة عائلية وضيوف

واصل عدنان، بعد ان اشعل سيجارته، ونفث دخانها عاليا نحو السماء، لحظات متقلبة مشحونة بأجواء حلمية وكابوسية، السؤال الذي انفجر في رأسي. هل حقا سقط صدام؟ كنت احاول ان اصدق هذا الحلم، وأنا اشاهد (الكتل الحديدية) تقطع الشارع العام من جسر زيونة نحو ساحة عقبة بن نافع، وفوق هذه من الكتل الحديدية جنود أشبه بدمى ميكانيكية يتلفتون يمينا ويساراً والبنادق والرشاشات بين ايديهم. وتوالت الاسئلة في داخلي كزخات مطر نيسانية سريعة. ماذا حصل، هل هذه كذبة الاول من نيسان وقد جاءت متأخرة ثمانية ايام؟
كان الحلم أقوى. والفرحة لا حدود لها.
لقد زال الطاغية، على ايقاع جلجلة سرفات الدبابات السريعة وأزيز الرصاص المنقطع، وحومان طائرات الهليكوبتر فوق رؤوسنا على شكل دوائر تتسع وتضيق، وكان بإمكانك أن ترى الجنود المدججين بالسلاح في داخلها، ووجوههم نحونا، كما لو انهم يبحثون عن شيء فقدوه... ينهض عدنان ليستقبل ضيفا جديدا. انه المحامي رعد المهداوي (٥٧ عاما) هكذا قدمه لي وسرعان ما ادخله في النقاش من دون مقدمات مستهلكة.
كان الاعتقاد السائد بأن الامريكان "سينتحرون على اسوار بغداد".

كما قال صدام الذي فرّ هارباً من دون كلمة وداع!!. كل شيء جرى بسرعة مذهلة. لم أتأكد مما وحصل، الا بعد ان رأيت بأم عيني (الرفاق) في سيطرة شارع ٦٢ وهم يخلعون الزيتوني على عجل، ويلقون باسلحتهم بفوضى عجيبة. كنت أشاهدهم من سطح منزلي. لا يعرفون اين يذهبون وعلى الجانب الآخر وفوق معسكر الرشيد تحديداً، كانت "الأباتشي" . كما عرفنا . تطلق الصواريخ على مواقع محددة. تكدس الرفاق في سيارة برازيلي زرقاء اللون احدهم اضطر إلى ان يجلس فوق مقدمة السيارة التي انطلقت بسرعة الى مكان مجهول!. وماهي الا لحظات حتى كانت الدبابات الامريكية تدخل الشارع من جهة ساحة الواثق، بعد ان تركزت دبابتان في الساحة نفسها. زوجتي وأولادي تحلقوا حولي. سألتني زوجتي من هؤلاء؟ أجبتها ساخراً "اولاد عمومة صدام" لكن شيئاً ما في داخلي كان يعتصرني. شيء غريب، في هذا النهار الهادئ الذي سيبقى عالقاً في الذاكرة حتى لحظة الموت لا أخفيك أني ابتهجت، لأن حلماً طال انتظاره قد تحقق ولكن.. كانت السيدة علياء، تستمع الى حديثنا بكل إنتباه، وكنت اشعر ان بداخلها كلاماً سألتها ان تدلو بدلوها، قالت وهي تحول بصرها من زوجها الى ضيفهم باستحياء واضح صدقني استاذ، كانت فرحة حقيقية. أما الحزن الذي يتحدث عنه زوجي فهو وليد ما بعد تلك اللحظات، لأننا حين كنا نستمع الى محطة الـ (بي. بي. سي) وهي تبث تصريحاً لبوش، بان امريكا لا شأن لها بنظام صدام، وان مشكلتها مع اسلحة الدمار الشامل، كنا نشعر بالحزن والكآبة. بكل بساطة، لان هذا يعني، أن زمن القهر والألم سيطول!

تاريخ اخر

الغريب في الامر ان يوم ٩ نيسان، كان اخف ضجيجا من بقية الأيام. دوي القنابل متفرق ومتباعد، اصوات المضادات اختفت، كأن الارض قد أنشقت وابتلعتها، الشوارع فارغة، إلا من شعارات "لن يمروا"!!. واضاف العقيد المتقاعد ابو علاء (٦٢ عاما)، وهو جاري الذي كان يسألني يومياً، متى نتخلص من هذا (الغضب)؟ ويقصد صدام طبعاً، خرجت بحذر الى الشارع العام عند ساحة التحريات، بعد عدة ساعات من تناقل خبر سقوط صدام. كان الوضع مسترخياً، شاهدت جنودا امريكان، يشربون الماء من قناني خاصة، ويخلعون خوذهم، كان احدهم ممداً فوق العشب الاخضر، ويبدو كما لو انه انهى مهمته، وعليه ان يستريح. كنت في فرجة. خطواتي متثاقلة. كنت احاول ان استوعب المشهد. لقد ابتسموا الآن. سألت نفسي. كيف وصلوا إلى بغداد؟ قفزت الى ذهني مشاهد معاركنا في حرب تشرين عام ١٩٧٣، وبطولاتنا الأخرى ونحن ندافع عن العراق والعرب معاً. كان شعوراً ثقيلاً بالإهانة! يكذب عليك أي عراقي . غير عصابة صدام . اذا حدثك بالشعارات الجوفاء. فرحة عارمة ولكن الغصة في البلعوم. سألت احد الجنود، ان كان كل شيء قد انتهى، جاوبني مبتسما (((صدام.. باي باي))) ملوحاً بيده اليمنى اشارة الوداع. تركته والتفت الى تجمعهم اكثر من مرة وانا أحاول أن اصدق إن كان المنظر واقعيا! لكنني اقتنعت باننا قد دخلنا تاريخا اخر منذ تلك اللحظات.

ذاكرة سندريلا

سندريلا طفلة عمرها عشر سنوات، حاولت ان اعيدها الى ذلك اليوم، وافتح ذاكرتها على ذلك المشهد تدريجيا: حبيبتي، هل تذكرين يوم شاهدت الدبابات أول مرة؟ حدقت في عيني لحظات، كانها تستجمع ذلك الزمن في ذاكرتها: كنت خائفة جداً. ولكني كنت احتمي بوالدي. اصعد معه الى السطح وأخرج معه الى باب الدار. وماذا كان يقول والدك؟ تدخلت والدتها: كان يدخن بارتباك ويردد بصوت مسموع "صارت صدك"!
وماذا بعد يا حلوة؟ اخذني أبي الى الشارع العام. كنت أمسك بيده بكل قوة وأنا ملتصقة به. اعطاني "نستلة" وقال لي لا تخافي! ولكني من شدة خوفي لم آكل "النستلة" حتى عدنا الى الدار. وماذا بعد ان عدت اكلت "النستلة" وانا في حضن والدي وهو يلعب الطاولي مع عمي على السطح!!

اراد النظام الساقط ان يجعل من جثثهم مادة غنية للقنوات الفضائية!

اهالي مدينة الصدر: كان يوماً طال انتظاره!

عبد الزهرة المنشداوي

كانت الريبة والشك تعصف باهالي مدينة الصدر من ان نظام صدام سوف يجعل من جثثهم مادة غنية لاجهزة الاعلام والتلفزة على طريقة (يا مغرب خرب) كما يقول المثل الشعبي هذا اضافة إلى ان صدام نفسه كان يصرح قبيل الاطاحة به بانه سوف (يعطي) العراق تراباً. اهالي مدينة الصدر ظلوا غرماء وخصوماً للنظام الدكتاتوري وقد عبروا عن ذلك بالقول والفعل في نهاية السبعينيات ،وعلى اثر اعدام الامام الشهيد محمد باقر الصدر خرجوا منددين ودعوا إلى اسقاط النظام وشاركوا في الانتفاضة الشعبانية التي اعقبت غزو الكويت عام ١٩٩١ فضلا عن تمردهم الشعبي اثر اغتيال الشهيد محمد محمد صادق الصدر سنة ١٩٩٩، خلاصة القول ان اهالي المدينة كانوا يتطلعون إلى يوم سقوط النظام بفارغ الصبر .

الصواريخ تنير السماء

جاسم خلف العبودي (من سكنة قطاع ٣٧) كان مصاباً بعقدة نفسية اسمها (صدام) وضع له صورة ملونة في باب الغرفة يبصق عليها عند الدخول والخروج. وكان هذا العمل يشعره ببعض الارتياح.
تمرد فلم يلتحق بالجيش عند اندلاع الحرب العراقية / الايرانية ، لكنه استطاع ان يتدبر امره لاعالة عائلته عن طريق انتحال شخصية اخرى بعد تزوير وتدبير اوراق رسمية، وعمل سائقاً لدى الطبيب الشخصي لصدام نفسه، ويقول: عملت سائقا لطبيب اسنان صدام التي كانت رؤيته تثير في نفسي الغيظ ممتزجاً بالمرارة، عندما اراه وهو ياتي لفحص اسنانه، في مستشفى ابن سينا امتنع حتى عن الطعام من شدة الغضب الذي يعتريني وانا اراه محاطاً بكلابه.
ويضيف : كنت متاكدا تمام التاكد من ان نهاية صدام ونظامه قد ازفت، وانه هالك لا محالة، لهذا عندما استشارني احد الهاربين من الجيش في مسألة التحاقه إلى وحدته العسكرية قلت له: انتظر ثلاثة أيام فقط فان لم يسقط النظام فالتحق إلى وحدتك قلت له ذلك في اليوم السادس من نيسان ، وفي اليوم التاسع منه راى العالم تهاوي الصنم في ساحة الفردوس.
في ذلك اليوم شعرت بان الامريكان اصدقاء لي (فعدو عدوي صديقي) كما يقولون هذه حقيقة شعوري في ذلك اليوم.

يوم عجائبي

ويقول عباس العبودي طالب في معهد الفنون الجميلة عما يتذكره من احداث ذلك اليوم العجائبي:
. سقوط الصنم يوم التاسع من نيسان كان انعتاقاً من نظام همجي لا مثيل له. يومها قبضنا على افراد من فدائيي صدام تسللوا إلى المدينة وهم ما بين مخمور ومخدر، كانت غايتهم اثارة القوات الاميركية لتهاجم المدينة، وبالفعل اطلقوا صواريخهم من داخلها باتجاه هذه القوات التي رابطت على منطقة السدة شرقي مدينة الصدر لكي ترد نيران القوات الاميركية بالمقابل فيقع وابل نيرانها على السكان، لكننا سارعنا إلى احتوائهم والقاء القبض عليهم. وكان من بينهم سوريون قالوا لنا بالحرف الواحد ان ازلام النظام افهموهم بان مدينتنا (شيوعية) وليست (شيعية). شقيقه حسام (١٩) سنة يدخل علينا لياخذ نصيبه من الحديث هو الاخر فيقول:
اصوات الانفجارات المدوية والطائرات التي كانت تحوم في السماء لم تدعنا ننام ليلتنا.
وقال: أن شقيقاً اخر له القى القبض على عنصر مما يسمى (فدائيي صدام) يحمل (رشاشة) ولديه ساعة يدوية مزينة بصورة صدام. وقد اخبرنا بانه ارسل مع مجموعة من قبل الصحاف لاثارة القوات الاميركية ضدنا.

فرح وحزن

السيد هاشم جونه في العقد السادس من العمر، قارع النظام مقارعة لا هوادة فيها، وكان من الحركيين القوميين، وجعل من بيته مقراً لاجتماعات ولقاءات سياسية تم تغطيتها تحت ستار الامور العشائرية بذكاء.
وعن شعوره بالاطاحة بنظام صدام يوم التاسع من نيسان قال:
منذ البداية كنت اتابع الامور وكنت متيقناً بان صدام سوف يرمى في المزبلة ومن حسن الحظ كان لدي مولد كهربائي وراقبت سير الاحداث عبر شاشة (العالم الفضائية) ودخول القوات الاميركية منذ البداية إلى محافظة البصرة. وكان شعوري مشتتا بسبب اني سوف ارى نهاية دكتاتوري وفاشي جثم على صدور العراقيين سنيناً طويلة وكان هذا هو الجانب المفرح في الامر. اما الجانب الاخر فكان دخول قوات اجنبية غازية لبلدي. وهذا ما كنت لا ارتضيه صراحة. وعندما دخلت هذه القوات من جانب الدورة وابي غريب ايقنا بان النظام قد تهاوى وسقط وان هناك موجة من الانفلات الامني والفوضى ستحدث في العراق، وان عناصر النظام سوف تبدأ بالتخريب والدمار. لهذا قمنا بتهيئة الناس في مدينتنا، وقد ذهبت بنفسي إلى اقرب جامع في المنطقة والقيت كلمة عبر مكبر الصوت وعلى ما اذكر كانت الساعة قد قاربت الثانية عشرة من منتصف النهار.
أعلنت فيها للناس بان النظام قد ولى وعليهم الحفاظ على امن مدينتهم من متسللين من ازلام النظام المنهار ممثلين بـ (فدائيي صدام) وقواته الخاصة للعبث بالمدينة.
والشي الذي اعتز به إلى الان ان دعوتي قد اعتمدت في جميع قطاعات مدينة الصدر.

تركوا مدافعهم وفروا!

الحارس حمود كريم المحمداوي قال انه كان في نوبة حراسة في معمل يقع في منطقة العبيدي ينتج مادة الطحين، وقد رأى ازلام صدام وهم يقومون بنصب مدافع قرب المعمل مستترة بالجدران ، فاعترض على خططهم هذه التي سوف تجلب الدمار حتما لاملاك الغير.
قال: لكنهم نهروني وتفوهوا بكلام سيئ، وخفت ان يحكمون علي بالموت . كنت في حيرة من امري خاصة ان الاخبار تؤكد ان القوات الاميركية تتقدم من الجنوب نحو مدينة الصدر، وبالفعل سمعنا دوي اسلحتهم اعقبها ظهور الدبابات التي رايتها تصل إلى العبيدي في طريقها إلى مدينة الصدر. غير ان ازلام النظام المباد لاذوا بالفرار وتركوا مدافعهم في اماكنها!

فدائيو صدام استفزوا الاميركان لاسقاط حمم نيرانهم على بيوت المدينة

اهالي مدينة الصدر كانوا بين قطبي رحى طاحنة

تحت الضوء

(سقـــط) في مثل هذا اليـــوم!

حسين محمد عجيل

في مثل هذا اليوم منذ سنتين هُزم صدام – قبل أن يهزمه الأمريكان المحتلون –أمام حقيقة كان يخافها وعاش مدة حكمه هاربا منها، وأقام نظامه الإرهابي كي يتفادى إمكانية أن تشكّل ملامح مصيره الحتمي.. كانت هذه الحقيقة البسيطة هي كراهية الشعب العراقي بكل مكوناته له ولنظامه التسلطي الذي دام ثلاثة عقود عجاف. وكنا، نحن الذين شهدنا ذلك اليوم، ندرك بأن حسن حظنا فقط هو الذي أنجانا بأعجوبة من عشرات المصائر المهلكة والفخاخ القاتلة التي كانت تنتظر كل عراقي قدّر له أن يعيش هذا الزمن الرديء ليحترق بسعير الدكتاتورية وسعارها. كنا يومها كجنود خارجين من معركة خاسرة، ربحنا فيها أنفسنا وفقدنا فيها . مع مجتمع عاش دائماً على الحافات الحادة للقلق منذ شهد الطوفان الأول . أكثر من ربع قرن لا تعوض من السنين محملة، بما قد لا تطيق من خسارات قاسية شتى.. أخوة في ذروة شبابهم وأبناء وأصدقاء ومعارف وزملاء وجيرة، قضوا في ثلاث حروب متتالية امتدت بين قرنين من الزمان.. ثم جاء الدور على الأطفال والأخوات والأمهات والجدات والآباء والشيوخ، الذين قضوا في حروب المدن والسجون والمعتقلات ومعسكرات الأسر في دول الجوار والحصارات المتداخلة والمناطق القريبة والبعيدة والتهجير الداخلي والمعتقلات والمقابر الجماعية.. وهي خسارات لا طاقة لأي مجتمع آخر بتحمل تبعاتها النفسية. لنكتشف في نهاية المطاف أننا خسرنا أيضاً ثروات هائلة بَنَتْ في حراكها خارج بلادنا دولاً على هذا الكوكب من درجة الصفر، وأوقفت دولاً غيرها على قدميها، وأنقذت دولاً ثالثة من إفلاس لا محيد لها عنه، وأننا أيضاً (يا للهول) مدينون بمبالغ فلكية لا تقل عن مئة وثمانين ترليون دولار في أقل تقدير، وقد تزيد على الستمائة ترليون دولار في تقديرات أخرى. وأننا فقدنا أيضاً شطراً عزيزاً من ذاكرتنا الجمعية؛ مكتبات ومتاحف فخمة وقطعاً أثرية نادرة لا أحد للآن يعرف عددها الحقيقي، ولوحات وأعمالاً تشكيلية ومخطوطات ووثائق تتمنى أن تمتلك جزءاً صغيراً منها دول خاوية تحاول أن تمسك بالفراغ.
وقائمة الخسارات تطول لتشمل أيضاً ملايين النخيل ومساحات لا تحصى من البساتين المثمرة، وبيئة الاهوار المغتالة مع سبق الإصرار، وعشرات الأصناف من الطيور والأسماك والحيوانات البرية والنهرية والأشجار والأعشاب التي انقرضت بسبب التلوث والأمطار الحامضية السود..
لكننا برغم كل ذلك ربحنا وطناً نحبه وإن كان مثخناً بالجراح، وإن عاد بعد أكثر من أربعين عاماً من الاستقلال ليكون من بين بلدان، تعد على أصابع يد مبتورة، ما زالت خاضعة للاحتلال العسكري المباشر.. كنا ندرك أيضاً أن هذا العراق شابٌ مفتولِ العضلات بثرواته المتنوعة أصابه عارض شلّ قدراته مؤقتاً، وهو يحتاج إلى كثير من المحبة الحقة والعمل المنتج، لكي يشفى وينهض واقفاً على قدميه. وها قد زال العارض الأول وحل عارض ثان، هو الاحتلال الأمريكي. وهذا الأخير يتطلب برنامجاً وطنياً صبوراً لإنهائه، يسهم فيه أهل البلاد جميعاً بعد أن بدأ يتقاطر عليها أبناؤها من قارات العالم المأهولة.
هكذا بدت لي خريطة جراح العراق يوم سقط الصنم، وأضيفت إليها بمرور الوقت تفاصيل جديدة دخلت على مسرح الحدث؛ كان أهمها تكالب قطعان من الإرهابيين المستوردين، آوتهم في بلادنا وتحالفت معهم زمر صدامية لا تريد أن تقتص منها دولة القانون التي تتشكل، ولم تردعهم دولهم التي سيعودون إليها قريبا لتكتشف متأخرة أنها ستعض أصابع الديناميت ندما. مثلما عاد، في تجربة غير بعيدة، ما كان يُعرف بالأفغان العرب إلى دولهم فعاثوا فيها قتلا برغم أنها هي التي سهلت خروجهم إلى ذلك البلد النائي لتتخلص من مشاكلهم مؤقتا.
ولكن، في المقابل، ثمة الكثير الذي تحقق لإقامة دولة المؤسسات الديمقراطية، وإن بدا أننا نسير ببطء قد تبرر بعض جوانبه عوامل موضوعية. فقد أتت العملية السياسية ببعض أُكلها حين نجحت الانتخابات بإرادة شعبية أذهلت حتى المتفائلين، ونتجت عنها بعد مخاض عسير جمعية وطنية انتخبت قبل أيام معدودة رئيسا لها ثم انتخبت أول أمس رئيسا للجمهورية ونائبين، ليتم خلال أسبوع تشكيل حكومة تحظى بثقة البرلمان، في تجربة لم يسبق أن عاشها العراق من قبل، سُمح للمخلوع وزبانيته بمشاهدتها على الهواء ولكن من داخل السجن، السجن الذي كان كبيرا يتسع لكل العراق وضاق ليضم الجلادين والقتلة فقط.
حين سقط تشاوشيسكو دكتاتور رومانيا المخلوع في التسعينيات شاهدنا على شاشة التلفزيون جنديا رومانيا يدخل مكتبه ويصفعه على وجهه صفعة نكّست رأس الدكتاتور وأفرحتنا نحن الذين كنا نتفرج على مشهد نتمنى أن يكون في بلادنا من يقوم بمثله. ولعل السماح بعرض ذلك المشهد على مواطنين محتقنين مثلنا كان خطأ تحمّل وزره من سمح بعرضه!
تساءلت حينها: هل يقيض لي أن أتلذذ يوما برؤية مشهد ختام كهذا يقوم فيه صدام بدور الكومبارس الذي يتلقى الضربة وينكّس لها الرأس كتشاوشيسكو تماما؟ ولكن حين ظهر مشهد صدام الختامي على الشاشة منتصف كانون الأول ٢٠٠٣ مسحوبا من حفرته، علم كل المضللين في العالم العربي أن دور الكومبارس هو ما كان صدام يؤديه على الدوام خادعا الجميع بأداء دور بطل مزيف!